

نظرية الحدث اللغوي بين التأسيس والضبط المنهجي

سهل ليلي

قسم الآداب واللغة العربية

جامعة محمد خيضر - بسكرة

ملخص

لا يمكن فهم اللغة إذا لم نفهم الخطاب، ولا نفهم الخطاب إذا لم يكن هناك تواصل. واستنادا إلى هذا الاتجاه جاءت اللسانيات التداولية وأصبحت مجالا يعتد به في الدرس اللغوي بعد أن نافح عنها كل من جون أوستين J. Austin وسيرل Searle. وتعتبر نظرية أفعال الكلام من بين أولى النظريات التي حاولت بحث العلاقة بين الفعل والإيصال، لذلك جاءت هذه الدراسة موضحة نظرية الحدث اللغوي بين تأسيسها وضبطها المنهجي.

Abstract

Language can not be understood before we understand speech. This latter can not happen without the existence of communication. Depending on this view pragmatic linguistics appears. It becomes a domain that can be relied on in the linguistic study after the defence of John. Austin and Searle. They considered the speech act theory among the early theories that tried to find the relation between the act and receipt. For that reason, this study comes to clarify the speech act theory from its foundation to its systematic accuracy.

أظهر اللغويون المتخصصون اهتماما بارزا بالقضايا اللسانية منذ أقدم العصور، وكان هذا الاهتمام محكوما بمتطلبات الحياة الاجتماعية، فكان تطلعهم إلى معرفة اللغة ولا سيما الشكل الذي سجلت به. فانبرت كل أمة تعرض لغتها بما تحمل من سمات تخولها أن تكون اللغة النموذجية التي يحتذى بها في الدراسات اللغوية. فظهرت المدارس اللسانية بداية القرن العشرين. ففي أوروبا نجد مدرسة جنيف ثم مدرسة كوبنهاجن ومدرسة لندن. وفي أمريكا برزت التيارات اللسانية الهامة كاللسانيات الوصفية والبنوية والقواعد التحويلية لشومسكي. ونتج عن هذه المدارس والتيارات نظريات ومفاهيم لغوية متباينة، أدت إلى ظهور تيارات لسانية جديدة كاللسانيات التداولية، وهو تيار تجاوز النمط المعرفي القائم على فن الإقناع والفصل بين الكلام والعمل. ولقد توصل إلى أن هناك أفعال كلام تنشئ حدثا حين نطقها، فأصبح يعنى بالبعد الاستعمالي للغة، فيدرس ظواهر اللغة باعتبارها كلاما يستعمله شخص ما في مقام ما لأداء غرض معين. كما أن الأبحاث والمؤلفات حاولت أن تجد في رحابها أجوبة لكثير من الأسئلة مثل: ماذا نصنع حين نتكلم؟ ماذا نقول بالضبط حين نتكلم؟ ومن يتكلم؟ وإلى من نتكلم؟ ومع من نتكلم؟ ولأجل من؟⁽¹⁾.

ولقد أحدث التوجه إلى العناية بالظواهر الكلامية تحولا جذريا، إذ تغيرت النظرة إلى اللغة. فلم يعد ينظر إليها على أنها نظام من الأدلة مستودع في أدمغة المتكلمين، نظام تتدرج فيه هذه الأدلة ضمن علاقات تركيبية معينة خاصة بكل لسان، بل على أنها نشاط يتحقق في وضعية خطابية تبادلية ومقيدة بقيود خاصة⁽²⁾.

ويتحدد الفعل اللغوي أو الكلامي بتعريفات مختلفة، تعود إلى اختلاف المرجعيات الاستمولوجية التي انطلق منها الدارسون، ومع ذلك فإن المتفق عليه هو أن التكلم بلغة ما أو التحدث بها، يعني تحقيق أفعال لغوية. ويعد الفعل اللغوي محور اهتمام الدراسات اللسانية النصية إذ يمثل التأكيد على أشياء أو إعطاء أوامر أو إثارة أسئلة أو القيام بعود أو غير ذلك من الأفعال التداولية التي تركز على تأويل النصوص باعتبارها أفعالا للغة، كالعود والتهديدات والاستفهامات والطلبات والأوامر، ويتعبّر أدقّ فإنّ التداولية تقوم بتحويل مختلف الموضوعات إلى أفعال لغوية، بل إنّ التداولية كانت في مبدئها مرادفة لنظرية الأفعال الكلامية (3).

وكما تعدّ نظرية الفعل الكلامي في نظر أغلب الباحثين جزءا من اللسانيات التداولية وبخاصة في مرحلتها الأساسيتين عند "أوستين" Austin، ومرحلة النضج والضبط المنهجي عند تلميذه "سيرل" Searle. ونعني بعرض هذه النظرية في مرحلتها الأساسيتين عند كل من "أوستين وسيرل" عرضا موجزا يكشف عن منطلقاتها التأسيسية، وأسسها المنهجية، وما قام به سيرل Searle من تطوير لها وتعديل مفصلين (4).

والملاحظ على التداولية أنها ذات طابع عملي متغير بتغير ظروفنا وحاجتنا المتجددة، ومنهجها يقرر أن الحقيقة من صنع الإنسان، فلا توجد حقيقة مطلقة، وإنما كل حقيقة هي انشائية. وعلى هذا فإن الحقيقة لا تعلن مرة واحدة وإلى الأبد، وإنما هي ديناميكية وفي صيرورة مستمرة (5). وأصبحت التداولية تعنى بتحليل العلاقة بين النص ومستعملي اللغة، فهي تدرس الجانب الحي للغة، أي الجانب التواصل، لأن هذا الجانب ظل مستبعدا من قبل اللسانيين الذين ركّزوا في دراساتهم اللغوية على علم التراكيب وعلم الدلالة. فاللغة لا يمكن أن تتعزل عن استخدامها، بل إنّ الاتصال يلعب دورا فاعلا إذا أردنا أن نفهم حقيقة اللغة (6).

ولا بد من الإشارة إلى البدايات الأولى للأفعال اللغوية التي ارتبطت بدراسة القضايا المنطقية في إطار دراسة أقسام الكلام مع الفلاسفة اليونان وبخاصة "أرسطو"، وفي العصر الحديث وتحديدا عند "كانط" Kant وقعت الصيغة الخبرية تحت طائفة نقد مؤداه أن هناك جملا لها هذه الصيغة، لكنها لا تقبل الصدق والكذب، وإنها بالتالي تخرج من مجال المنطق والفلسفة. ونتيجة لهذا النقد يكون الاتجاه الموضعي الذي عمل على إزاحة جزء كبير من الجمل التي تقبل الصدق والكذب (7).

ويعد الفيلسوف الانجليزي "أوستين" من أهم الدارسين الذين قدموا جهودا معتبرة في هذا المجال، حيث قام بتمييز نوع الجمل التي تحمل الصيغة الخبرية، مما لا يقبل الصدق والكذب، وقسم الجملة الخبرية إلى إنشائية ووصفية، وهو ينطلق في هذا التقسيم من أقسام الجمل والخبرية والاستفهامية. وإن اتجه "أوستين" اللغوي في مجال الدراسات التداولية ومذهبه الخاص، يرى أن وظيفة اللغة هي استعمال وإنجاز لمجموعة من الأفعال اللغوية، مما جعله يتجاوز مستوى الجملة. وتفرع اتجاهه في دراسة اللغة إلى ثلاثة توجهات:

أ : دراسة الأعمال في ذاتها.

ب : دراسة الأعمال عن طريق المحادثة، وسبيل المتكلم في التعبير عن نفسه بصورة تجعل المخاطب قادرا على

فهم مقصده باستعمال عمليات ذهنية، وأشهر أعلامها "غرايس" .

ج : دراسة متضمنات القول والافتراضات المتبعة والمحااجة، ومن أشهر أعلامها "دي كرو".

لقد حاولت فلسفات أن تبني تصورا لغويا، يغدو فعالا في التعبير عن الكون من خلال تقسيمات وتصنيفات رأتها مقننة للنشاط اللغوي، وهذه التقسيمات تمس بشكل مباشر الفعل الكلامي، وإنه اجتهد يرتد إلى فلاسفة الإغريق الذين عملوا على صياغة جهاز مقولاتي، يعالج مشكلات الواقع آنذاك، وكل واقع لابد له من ذلك الجهاز وهو ما يبرهن عليه تاريخ الفكر البشري. ولكن الإغريق انطلقوا من خصوصيات واقعهم، والواقع يتغير ويتحرك والتصنيف المقولاتي ثابت. وهو أمر يحدث شرخا وهوة بين الواقع وتوجهه الفكري، وبين نمط التصور اللغوي فيه. والإشكال الذي لاحظته "أوستين" هو غياب مبررات البقاء على تصنيف مبررات بقاءه، أي تصنيف المناطق الأرسطيين والسلوكيين يقوم أساسا على أن اللغة هدف وغاية، وأن وظيفتها وصف العالم، بينما تفرض معطيات العصر الحاضر المتمثلة في هيمنة التوجه النفعي القاضي بأن لا قيمة لشيء إلا بما يقدمه من مصلحة، ومن ثم اقتنع "أوستين" بوجوب إعادة النظر في صياغة التصور اللغوي بما يتلاءم وطبيعة هذا التوجه المهيمن⁽⁸⁾. ويعد مؤسس هذه النظرية وواضع المصطلح الذي تعرف به الآن في اللسانيات المعاصرة، وكان ذلك في المحاضرات التي ألقاها في جامعة أكسفورد في العقد الثالث من القرن العشرين . ولقد أنكر أن تكون الوظيفة الوحيدة للعبارة الإخبارية هي وصف حال الوقائع وصفا إما صادقا أو كاذبا وأطلق عليه المغالطة الوصفية، وميز بين نوعين من الأفعال، أفعال إخبارية تخبر عن وقائع العالم الخارجي وتكون إما صادقة أو كاذبة، وقد أثر أن يعدل عن تسميتها أفعالا وصفية لأنه ليس كل ما قد يقبل الصدق والكذب وصفي، وأخرى تتجزأ بها في ظروف ملائمة أفعال تؤدي، وقد أطلق عليها مصطلح الأفعال الأدائية⁽⁹⁾.

وبالرغم مما يبذله "أوستين" من جهد في التمييز بين الأفعال الأدائية والإخبارية، فقد ظل يرجع النظر في هذا التقسيم حتى يتبين له في النهاية أن الحدود بين هذين النوعين من الأفعال لا تزال غير واضحة، فعاد من حيث بدأ إلى السؤال كيف ننجز فعلا حين ننطق قولا ؟ فرأى أن الفعل الكلامي مركب من ثلاثة أفعال تؤدي في الوقت نفسه الذي ينطق فيه بالفعل الكلامي، فهي ليست أفعالا ثلاثة يستطيع المتكلم أن يؤديها واحدا وراء الآخر، بل هي جوانب مختلفة لفعل كلامي واحد، ولا يفصل أحدها عن الآخر إلا لغرض الدراسة فحسب وهي⁽¹⁰⁾:

(1) الفعل اللفظي : ويتكون من النطق بأصوات لغوية ينتظمها تركيب نحوي صحيح، ينتج عنه معنى محدد هو المعنى الحرفي أو الأصلي المفهوم من التركيب، وله مرجع يحيل إليه.

(2) الفعل الغرضي أو الإنجازي : ويقصد به ما يؤديه الفعل اللفظي من وظيفة في الاستعمال كالوعد والتحذير والأمر والنصح...ألخ

(3) الفعل التأثيري : ويقصد به الأثر الذي يحدثه الفعل الإنجازي في المخاطب، سواء أكان تأثيرا جسديا أم فكريا أم شعوريا، وهو ما يعمل على إحداثه رد فعل المخاطب⁽¹¹⁾.

ومن خلال ما سبق يمكن تلخيص ذكر أوستين في نقطتين اثنتين:

النقطة الأولى : في رفضه ثنائية الصدق والكذب.

النقطة الثانية : بأن كل قول عبارة عن عمل.

فيرفض "أوستين" الصدق والكذب بالنسبة لجمل الإثبات التي وضعها المنطقة، ويلاحظ أن هناك جملا ذوات بنية مشابهة لجمل الإثبات والتي يمكن للمتكلم أن يصطنع بها أشياء عديدة كالأمر والتقريب والتنبيه... إلخ⁽¹²⁾. فبالنسبة للأقوال التالية : "أتمنى لكم سفرا ممتعا، أرجو منكم المعذرة"، لا يمكننا وصفها بالصدق أو الكذب، إذ إن كل ما يمكن قوله هو أن هذه الأقوال قد تنجح أو قد تخفق، أو أنها تستجيب لمقتضى الحال أولا⁽¹³⁾. وهناك من يقول أن الفعل اللغوي يحتوي حسب تحليل أوستين خلاف القول السابق على ثلاثة أفعال تشكل كيانا واحدا، علما أن هذه الأفعال الثلاثة يقع حدوثها في وقت واحد.

1 - **فعل القول** : الذي بواسطته ينقوه المرء بشيء ما ، ويتفرع إلى ثلاثة أفعال فرعية⁽¹⁴⁾:

أ - **الصوتي** : يتمثل في التلفظ أو إنتاج أصوات.

ب - **التبليغي** : يتمثل في كون هذه الأصوات تتوفر على صورة (كلمة) فضلا عن انتماؤها إلى لغة محددة.

ج - **الخطابي** : الذي يجعل هذه الكلمات أو العبارات ذوات دلالة معينة.

2 - **الفعل الإنشائي** : فيتمثل في إنجاز عمل ما بإنتاج الفعل الإنشائي، ويتعلق الأمر هنا بتحقيق قصد المتكلم.

3 - **التأثيري** : الذي بواسطته أحدث وجوبا رد فعل لدى المخاطبين⁽¹⁵⁾.

وخلص أوستين إلى الوصول إلى تقسيم جميع أفعاله إلى خمس فئات كبرى :

1 - **الحكميات** : وتتضمن إطلاق أحكام أو قيم على واقع ما مثل برأ، قيم،... إلخ

2 - **الإنفاذيات أو التمرسية** : وتتضمن بمتابعة أعمال مثل الطرد، العزل، الاتهام... إلخ

3 - **الوعديات أو التكليف** : وتتضمن إفصاحا عن نية ما، أو إلزام للنفس بتقديم وعد ما مثل: وعد، نذر، راهن، أقسم... إلخ

4 - **السلوكيات** : وتتضمن إظهارا لحالات نفسية تجاه ما يحدث، أو تعكس سلوكيات إجتماعية مثل اعتذر، شكر، هنا، هجا، مدح... إلخ

5 - **التثبيطات أو العرضية** : وهي تعكس صلة أحاديثنا بما نتحدث عنه بالمحاجة مثل ثبت، أكد، أنكر، أجاب... إلخ

إن تقسيمات أوستين لم تكن ليقبلها د/محمد مفتاح وهو يتحدث تحت عنوان التفاعل، ليدلل عبرها على التأثير المتبادل بين الإلقاء والتلقي في خضم حياة حركية، الأمر الذي جعله يقترح للتداولية تعريفا إجرائيا كالآتي "التأثير المتبادل بين مرسل ومتلقي في حالة حضور أو غياب، باستعمال الأدلة اللغوية المطابقة لمقتضى المقام والمقال".⁽¹⁶⁾

ونقف عند "محمد أديوان" على تعريفه للفعل اللغوي الأستيني إذ يقول "تكلم لغة ما أو التحدث بها، يعني تحقيق أفعال لغوية ومنها أفعال تصلح للتأكيد على أشياء أو إعطاء أوامر، أو إثارة أسئلة أو القيام بوعود، أو غير ذلك من الأفعال اللغوية"⁽¹⁷⁾.

والذي يجب الانتباه إليه هو مراعاته مقصد المتكلم، خصوصا إذا لم تكن صيغة الفعل الشفوي لا تحليل بشكل مباشر على نوع محتواها المضموني . والبحث في المقاصد تمنحه التداولية الكثير من اهتمامها، إذ بمراعاتها

يتحقق التواصل الناجح، ومن ثم يتحقق الهدف النهائي المتمثل في المنفعة من صياغة الفعل اللغوي رأساً، والمنفعة ليست غير الأثر الذي يفترض أن يتركه كل خطاب ناجح.

ولعل "فرانسواز أرمينكو" تكون صاحبة فضل في اختزالها التعبير عن قائمة أصناف "أوستين" والتي أطلق عليها اسم لائحة. لتقول بعد أن أكدت على ريادة أوستين : وهذه اللائحة تشتمل على: أكد و وضع سؤالاً، وأعطى أمراً، ووصف، وهدد... (18).

ومن هنا تبرهن "أرمينكو" على أنها أدركت بناء "أوستين" لتقسيمه للأفعال على قاعدة مراعاة العلاقة بين العلامات ومؤوليها. فعمل أوستين ينتمي إلى أصول المدرسة التخاطبية التي جاءت دراسات أصحابها نتيجة طبيعية لشعور المهتمين بها بإخفاقه التقليدي للتخاطب في تقديم تفسير ناجح لعملية التخاطب، ويمكن تلخيص أوجه الإخفاق فيه، في أنه يتعامل مع التخاطب في عزلة عن السياقات الفعلية التي تستخدم فيها اللغة، ويصنع عملية التخاطب بطابع مثالي تتجاهل فيه قضايا اللبس والخروج عن المواضع اللغوية، وقصر وظائف اللغة على عملية الإبلاغ وإهمال الأصول التخاطبية المفسرة لمقاصد المتكلمين (19).

نسوق مثلاً يتضح به هذا الفعل الكلامي المركب من ثلاثة أفعال: إذا دخل عليك شخص وقال لك (خلف الباب أفعى) فالفعل اللفظي هو الهيئة التركيبية لهذه الجملة بأصواتها التي نطقت بتركيبها النحوي الصحيح، وبمعناها الحرفي الذي يقرر أن خلف الباب أفعى، ومرجعه وجود أفعى فعلاً خلف الباب، والفعل الإنجازي: وهو ما يقصده المتكلم بهذا القول وهو التحذير من الأفعى، والفعل التأثيري: هو ما يخلفه هذا القول من أثر فيك قد يكون الفزع أو الهرب من المكان أو النهوض لقتلها.... إلخ (20).

وقام أوستين بتقديم تصنيف للأفعال على أساس ما أسماه (قوتها الإنجازية) فجعلها خمسة أصناف، لكنه لم يتردد في القول بأنه غير راض عن هذا التصنيف.

1 أفعال الأحكام : وتعبر عن حكم يصدره محلف أو محكم أو حكم، وليس من الضروري أن تكون الأحكام نهائية : فقد تكون تقريرية أو وظيفية مثل: يبريء، يقدر، يعين... (21).

2 أفعال التعهد: وتعبر عن تعهد المتكلم بفعل شيء أو إلزام نفسه به مثل: أعد، أتعهد أقسم على... إلخ

3 أفعال السلوك: وتعبر عن رد فعل سلوك الآخرين ومواقفهم كالاعتذار والتعاطف والتحية والرجاء... إلخ

4 أفعال الإيضاح : وتستخدم لتوضيح جهة النظر، أو بيان الرأي وذكر الحجة مثل: الإثبات والإنكار والملاحظة والاستفهام والموافقة والتصويب... إلخ

وجاءت نظرية أفعال الكلام للفيلسوف الإنجليزي "جون أوستين" لتجسد موقفاً مضاداً للاتجاه السائد بين فلاسفة المنطق الوضعي الذين دأبوا على تحليل معنى الجملة مجردة من سياق خطابها اللغوي المؤسساتي، إضافة إلى ما وصفه أوستين بالاستحواذ، أو التسلط المنطقي القائل بأن الجملة الخبرية هي الجملة المعيارية، وما عداها من أنماط مختلفة للجملة هي مجرد أشكال متفرعة عنها . وميز أوستن في كتابه المنشور عقب وفاته "كيف تتجزأ الأشياء بالكلمات" بين الاستخدام الاعتيادي للغة، وبين استخدام آخر يصفه بالتطفل، ويعني بالتطفل هنا، التطفل على الاستخدام الاعتيادي للغة، ويمثل أوستن للاستعمال المتطفل بالكتابة الشعرية والروائية والمسرحية. وهو تمييز يقتضي أوستن التفريق من خلاله بين استخدامين أطلق عليهما تسميات عدة: جاد/غيرجاد، اعتيادي/غيرعتيادي، أولي/ثانوي.

يرى "أوستين" أنّ الأقوال اللغوية تعكس نمطا ونشاطا اجتماعيا، أكثر منها أقوالاً يتعاورها مفهوما الصدق والكذب الدارجين بين الفلاسفة الذين درسوا المعنى في إطار ما عرف بالمعنى القضوي للجملة التقريرية الخبرية، وهي الجملة التي يمكننا الحكم عليها قضويا بالصدق أو الكذب. وقدم أوستن أمثلة يوضح فيها أنه ليست كل الجمل خبرية، ويّين كيف أن اللغة يمكن أن تستخدم لتتجزّ وعدا أو تصريحاً، أو زواجا، أو طلاقاً أو رهانا أو مقايضة، إلى غير ذل من الأفعال التي يقترن القول فيها بإنجاز الفعل. وقد عمد في البداية إلى التمييز بين نوعين من الأقوال أسماها بالأقوال الإنجازية، مميزا لها عن النوع الثاني الذي أطلق عليه الأقوال التقريرية، وكان أوستين يورد تأكيدا أن كثيرا من الجمل والعبارات التي يشملها الحديث ليست خبرية، ولا تخضع لمفهومي الصدق والكذب، فاللغة تشتمل على أسئلة وعبارات تعجب، وأوامر وتعايير خاصة بالأمنيات والتطلعات، وعبارات التهريب والترغيب والتشجيع من مثل: "معذرة"، "مرحى، أحسنت"، "مرحبا" أي الكتب تفضل أي ضرر في المحاولة "افعل ما تحب"، غير أنه سرعان ما تبين لاحقا عدم دقة هذا التمييز، ذلك لأنّ الأقوال التقريرية غالبا ما تعمل هي الأخرى على إنجاز فعل الإخبار. وقد حاول أوستين فيما كان يعمل على إرهاف تمييزاته بين أنواع الأقوال المختلفة، أن يلفت الانتباه إلى الأقوال التي يفضي التلفظ بالفعل فيها (داخل سياق عرفي مكتمل الشروط) إلى الإفصاح عن حالة النشاط التي تدل عليه من مثل: "أعتذر".

وقد اعتبر أوستين أن بعض استخدامات اللغة في أغراض محددة مثل الحجاج والتحذير، أقرب للتعبير الإنجازي منها في أغراض الإقناع والتحريض والتنبية. كما أنه أشار إلى إمكانية فشل الأقوال الإنجازية وعدم تحققها، مستخدما حيالها معيارا مختلفا عن معيار الصدق والكذب فهي إما أن تكون موفقة، بمعنى أنها موافقة لمقتضى الحال، وإما أن تكون غير موفقة. وقد وضع أوستين شروطا لتحقيق الأقوال الإنجازية، نذكرها :

أن يكون هناك طقس عرفي مقبول، وأن يكون له تأثيره العرفي أيضا. ثم أن يشتمل الطقس أو الأسلوب العرفي على التلفظ بكلمات محددة من قبل أشخاص محددين في ظروف محددة.

- 1/ أن يكون الأشخاص المحددون، وكذلك الظروف مناسبة لتنفيذ الطقس العرفي المحدد.
- 2/ أن يتم تنفيذ الطقس العرفي على نحو صحيح من قبل جميع المشاركين فيه.
- 3/ أن ينفذ الطقس كاملا . وقد أضاف أوستين إلى هذه الشروط شرطا آخر وهو شرط الصدق، أي أن تتوفر للمشاركين المشاعر والأفكار والنوايا الأساسية التي يقتضيها الطقس العرفي علاوة على دوام واستمرار تمسك المشاركين بالسلوك العرفي.

ويرى أوستين أنه إذا لم يكن فعل الكلام موفقا بسبب عدم تحقق الشرط الأول أو الثاني المذكورين سابقا، فإنه يمكن وصف فعل الكلام هنا بأنه طائش . وهكذا فإنّ إعادة تسميتك لكل سفينة تدخل ميناء "دبلن" يعد فعلا طائشا لعدم تحقق الشرط الأول، أو طائشا لعدم تحقق الشرط الثاني، فلا الشخص المحدد مناسب ولا الطرف أيضا. وأما إذا انتفى تحقق الصدق في إنجاز الفعل، فإنه يمكننا وصف الأمر هنا بسوء استخدام فعل الكلام، ومثال ذلك قولك: أراهن دون أن تنوي الدفع، أو قولك: أعد، في حين إنك عازم على عدم الإيفاء بوعدك. ويؤكد أوستين أننا حين نتلفظ بقول ما نقوم بثلاثة أفعال:

1. **فعل التلفظ:** ويقصد بذلك الأصوات التي يخرجها المتكلم والتي تمثل قولا ذا معنى .
2. **فعل قوة التلفظ:** ويقصد بذلك أن المتكلم حين يتلفظ بقول ما، فهو ينجز معنى قصديا أو تأثيرا مقصودا، وهو

ما أسماه أوستن بقوة الفعل، وقد اشترط أوستن لتحقيق هذا المعنى الإنجازي ضرورة توفر السياق العرفي المؤسسي لغة ومحيطا وأشخاصا. فعبارة من مثل: "سأحضر لرؤيتك غدا"، يعتمد معناها الإنجازي - الوعد هنا - على مدى تحقق شروطها، بحيث يكون المتكلم قادرا على الإيفاء بوعده، وأن ينوي فعل ذلك، وأن يكون واثقا من أن المستمع يرغب في رؤيته، ذلك لأن انتفاء رغبة المستمع في رؤية المتكلم قد يحيل المعنى الإنجازي هنا من "وعد" إلى "وعد".

3. فعل أثر التلطف : ويعني بذلك أن الكلمات التي ينتجها المتكلم في بنية نحوية منتظمة، محملة . بمقاصد معينة في سياق محدد، تعمل على تبليغ رسالة، وتحدث أثرا عند المتلقي أو المستمع، وإذا كان المثال السابق قد أفاد معناه الإنجازي - الوعد - فإننا هنا لسنا بإزاء فهم الرسالة المنجزة فحسب، بل نحن هنا في حالة من التهيؤ والانتظار استتبعها قوة القول عبر المعنى الإنجازي " الوعد".

وعلى كل متضمن في القول أن يتوفر على غرض وغاية. ودرجة الشدة للغرض المتضمن في القول : قد يتحد متضمنان في القول في كل الشروط، ولكن فارقا يفرق بينهما بجلاء قوة الضغط فيه أي حدة ودرجة الكشف عن الغرض.

إن أوستين لم يستطع أن يحقق ما سعى إليه من وضع نظرية متكاملة للأفعال، فلم يكن ما قدمه من تصور كافيا، ولا قائما على أسس منهجية واضحة ومحددة، فلقد خلط بين مفهوم الفعل قسما من أقسام الكلام والفعل حدثا اتصاليا، ولم يتم تحديده للأفعال وتصنيفه لها على أساس راسخ، فتداخلت فئاتها. ولكنه بالرغم من ذلك وضع بعض المفاهيم المركزية في النظرية، ومن أهمها تمييزه بين محاولة أداء الفعل الإنجازي والنجاح في أداء هذا الفعل، وتمييزه بين الصحيح بين الأفعال الأدائية، فضلا عن تحديده للفعل الإنجازي الذي يعد مفهوما محوريا في هذه النظرية⁽²²⁾.

والتطور الأساسي للنظرية يكون قد تحقق على يد "سيرل" فيما يعرف بالمرحلة الأساسية الثانية للنظرية، فقد ظهرت على يده نظرية منظمة لاستعمالات اللغة بمصطلحات الأفعال الكلامية، قائمة على أن الكلام محكوم بقواعد مقصدية، وإن هذه القواعد يمكن أن تحدد على أسس منهجية واضحة ومتصلة باللغة، ولم يبدأ من فراغ، بل بنى على ما ابتدأه "أوستين"، وأخذ بحكمه شيئا فشيئا حتى أصبح خلقا سويا⁽²³⁾. وسعى هذا اللساني إلى تشكيل الرؤية التداولية تشكيلا يخالف فيه أستاذه "أوستين"، ويعتمد عليه في الوقت نفسه، ويخالفه بمقتضى ملاحظته لتقسيم "أوستين" على أنه مظنة للتداخل، فكثير من أفعاله يمكنها أن تندرج ضمن تصنيفين: فرأى أن أستاذه:

1- لم ينظر إلى الأفعال في ذاتها وإنما إلى ألفاظها.

2- لم ينتبه إلى أن الفعلين المختلفين في اللفظ غير المترادفين، لا يحيلان بالضرورة على متضمنين مختلفين. وتجدر الإشارة إلى أن من المراجع من يجعل موت "أوستين" المفاجيء هو ما حال دون إتمامه عمله في الأفعال اللغوية، وإن موت أوستين هو السبب في خلو نظريته من بعض مظاهر الكمال لذا أتيح الأمر "لجون سورل" بعده لتكملة بناء هذه النظرية⁽²⁴⁾.

وقد كان لتكوين "سيرل" ذي الطابع الفلسفي العقلي حضور في ذلك التشكيل، ويتجلى ذلك من خلال محاولة لرسم حدود للنظرية التداولية، فتجعلها تدنو من اللغات الإصطناعية، وقد أدته قناعاته إلى أن التنظير للسلوك اللغوي لا يمكنه أن يقدم نفسه إلا على أنه نظرية في العقل.

ويتحرك "سيرل" في تشكيل رؤيته تحت عنوان (القول هو العمل)، وهو المبدأ الذي حمله على ما يسمى (تحليل الفعل الكلامي)، فميز بين مفهوم فعل القول على أنه فعل التعبير عن القضية المراد إبلاغها. ومفهوم الفعل المتضمن في القول، على أنه القضية عينها المراد إبلاغها معبرا عنها بفعل القول. وبعد استفادته من دروس أستاذه "أوستين" اقترح "سيرل" بعض التعديلات، فطور نظرية الأفعال اللغوية، كما ألح على انقسام الفعل اللغوي، والطابع الخاص الذي تنطوي عليه بعض الأفعال المسماة بغير المباشرة (25).

ولكنه اشترط شروطا يجب توفرها في القضية كي ينجح الإبلاغ، حيث سمى مجموع هذه الشروط (القوة) وعبر: "إنّ السعي إلى تجريد المعنى القولي من القوة المتضمنة في القول، هو سعي إلى تجريد الرجال غير المتزوجين من العزب" (26)، وعليه لا تكتب كل جملة مفيدة حتى تحيل على ما توافر كل تلك الشروط ومنها القوى، فأى جملة أكتفي بتلفظها حرفيا وقوفا عند التلطف، فإنها تحيل على قوة واحدة فقط هي الفعل القولي.

شروط سيرل:

1- الغرض المتضمن في القول : يتعين، فأولى بـ(والله إني أحب العلم) أن يتوفر على ماليس في (إني أحب العلم).

2- نمط الإنجاز : هو ما يتحدث عنه الدكتور "محمد مفتاح" تحت عنوان (الشروط التحضيرية)، ومعناه أن ثمة ملابسات ومقتضيات قد تفصل بين (المتضمنات في القول) المتساوية في فعل القول .

3- شروط المحتوى القضوي: نعبر عن هذا بضرورة توفر شروط تعمل على ربط (فعل القضية) بالقضية المراد إنجازها، وذلك مثل شرط أن يكون الموعد به في فعل الوعد مستقبلا إذ لا ينجح تداوليا فعل لغوي، مثل أعدك أني سأساعدك أمس .

4- الشروط المعدة : ويسمى سيرل (مقتضيات القوة المتضمنة في القول) ويمكن التعبير عنها في ضرورة أن يكون المعبر عنه إما صحيحا، وإما فاسدا فالاعتذار مثلا عما هو حسن فاسد، مثل : أعذر عن شرحي الدرس جيدا.

5- شرط الصراحة : وهذا الشرط يتعين فهمه بوجوب النظر في ضرورة توفر المتكلم على حالة نفسية مطابقة لما يعبر عنه، فالذي يسأل من الضروري أن يتوفر على نفسية انتظار الجواب، ومن يأمر فإنه يتوقع تنفيذا، ولكن ثمة أشكالا تنشأ في حالة الكذب، أي عندما يعبر المتكلم عن نفسية لا يتوفر عليها.

6- درجة القوة في شرط الصراحة: وهذه ينسحب عليها ما ينسحب على شرط شدة الغرض مثل أرجوك امنحني نقودا.

ويمكن أن نحدد أهم ما قام به "سيرل" فيما يأتي :

أولا: قام بتعديل التقسيم الذي قدمه "أوستين" للأفعال الكلامية، فجعله أربعة أقسام، و أبقى منها على القسمين الإنجازي والتأثيري، لكنه جعل القسم الأول وهو الفعل اللفظي قسمين: أحدهما: الفعل النطقي، وهو يشمل الجوانب الصوتية والنحوية والمعجمية.

الثاني: الفعل القضوي، ويشمل المتحدث عنه، أو المرجع والمتحدث به أو الخبر . ولا يقع الفعل القضوي وحده، بل يستخدم دائما مع فعل إنجازي في إطار كلامي مركب، ولإيضاح ذلك نذكر الجمل الآتية :

1 يقرأ زيد الكتاب.

2 يجازيد اقرأ الكتاب.

3 يقرأ زيد الكتاب؟

4 لم يقرأ زيد الكتاب.

عند النطق بأي من هذه الجمل ينجز المتكلم ثلاثة أنواع من الأفعال في وقت واحد.

1/ **الفعل النطقي:** ويتمثل في نطقك الصوتي للألفاظ على نسق نحوي ومعجمي صحيح.

2/ **الفعل القضوي:** ويتمثل في مرجع هو محور الحديث فيها جميعا، هو زيد في الجمل الأربع، وخبر هو فيها جميعا، قراءة الكتاب، والمرجع والخبر يمثلان معا قضية هي قراءة زيد الكتاب، والقضية هي المحتوى المشترك بينها جميعا⁽²⁷⁾.

3/ **الفعل الإنجازي:** وهو الإخبار في الأولى والأمر في الثانية والاستفهام في الثالثة والتمني في الرابعة. والفعل التأثيري عند سيرل ليس له أهمية كبيرة، لأنه ليس من الضروري أن يكون لكل فعل تأثير في السامع يدفعه إلى إنجاز فعل ما.

ثانيا: رأى "سيرل" أن الفعل الكلامي أوسع من أن يقتصر على مراد المتكلم، بل يرتبط أيضا بالعرف اللغوي والاجتماعي.

ثالثا : استطاع سيرل أن يطور تصور أوستين لشروط الملازمة، التي إذا تحققت في الفعل الكلامي كان موقعا، فجعلها أربعة شروط، وطبقها تطبيقا موجزا ومحكما على أنماط من الأفعال الإنجازية، فطبقها على أفعال الرجاء، والاستفهام، والشكر والنصح والتحذير والتحية والتهنئة⁽²⁸⁾.

رابعا : أعاد سيرل النظر في تصنيف أوستين للأفعال الإنجازية، وقد أقام تقسيمه على أسس منهجية ثلاثة، ونص على أنه سيبني عليها تصنيفه للأفعال الإنجازية وهي⁽²⁹⁾ :

أ/ الغرض الإنجازي.

ب/ إتجاه المطابقة.

ج/ شرط الإخلاص.

خامسا : لقد ناقش "سيرل" عددا أوفرا من الأفعال الإنجازية غير المباشرة، وبخاصة تلك التي تكون استفهاما مقصودا به الطلب، ولحظ أن أهم البواعث إلى استخدام الأفعال غير المباشرة هو التأدب في الحديث . وكان سيرل قد قرر أن المتكلم لا يقصد ما يقول فحسب، بل يتعدى قصده ما قاله إلى ما هو أكثر منه⁽³⁰⁾.

ولقد لاحظ بعض الباحثين أننا نتواصل بالأفعال الإنجازية غير المباشرة أكثر من تواصلنا بالأفعال الإنجازية المباشرة، فالأفعال الإنجازية التي لا تستخدم إلا مباشرة قليلة جدا، وهي تقتصر في الغالب على ما يسمى الأفعال المؤسساتية كالتوكيد والتفويض، والوصية، والتوريث ونحوها، لأن الأفعال الكلامية إن استخدمت هنا غير مباشرة فسوف تؤدي إلى اللبس⁽³¹⁾ .

وقد قسم سيرل الأفعال إلى :

- **التقريرات :** وغرضها التقرير، وشرط محتوياتها القضية أن يوفر المتكلم في كلامه شواهد على صدق ما يقره. وأما إذا تعلق الأمر بالتقريرات السيكلوجية، فهو الإعتقاد الشخصي للمتكلم .
 - **الوعديات :** وغرضها الوعد وشرط محتوياتها القضية هو أن يكون الموعد له مستقبلا .
 - **الإيقاعات :** غرضها إحداث تغيير في العالم، وشرط محتواها الحدوث الفعلي في الواقع .
 - **البوحيات :** وغرضها الإفصاح عن حالة نفسية ما، وليس للبوحيات شروط قضية، لأنها مرتبطة بنفسية المتكلم إلا أن يقال لابد من توافر أسباب خلقت الجو النفسي سلفا .
- وقد عمل الفيلسوف الأمريكي "جون سيرل" على تطوير نظرية أفعال الكلام "لأوستين"، دامجا تحليلات غرايس المتعلقة بمقاصد المتكلم ودراسة المعنى، والتي عارض من خلالها المفهوم الشكلي الأرتوذكسي في نظرية الدلالة، القائل: بأن المعنى العام المتعارف عليه للكلمة يحدد أيا من المعاني التي يمكن أن تستتبعها الكلمة في استخداماتها المختلفة. يرى غرايس أن معنى الكلمة يشق من وراء قصد المتكلم للنطق بتلك الكلمة، فهو يؤكد أن ما يعنيه متكلم أو كاتب ما بعلامة ما... في مناسبة ما، قد ينحرف عن المعنى القياسي لتلك العلامة. واستفاد "سيرل" أيضا من مفهوم المعنى العام، والمعنى السياقي، كما وظفهما غرايس وقدم طرحه وتفسيره الخاص لكثير من مقولات هذه النظرية . ويرى سيرل في كتابه "أفعال الكلام" Speech Acts 1969 أننا نقوم بأربعة أفعال حين ننطق بجملة أو نتلفظ بقول ما.

1/ التلطف بالكلمات (جملا ومورفيمات) أي إنجاز فعل التلطف.

2/ الإحالة والإسناد، أي إنجاز فعل القضية أو الجملة .

3/ التقرير، السؤال، الأمر، الوعد أي إنجاز فعل قوة التلطف، ثم يقول: "لكنني أريد أن أضيف إلى هذه المفاهيم الثلاثة المفهوم الذي قدمه أوستن أي: فعل أثر التلطف :وهو المفهوم الذي يتلزم مع مفهوم فعل قوة التلطف، والذي يجسد النتائج والتأثيرات التي تحدثها الأفعال الإنجازية السابقة على أفكار وأفعال ومعتقدات المستمع، فبالحجاج مثلا يمكنني أن أقنع شخصا ما، وبالإنذار يمكنني أن أخيفه أو أنبهه، وبالطلب يمكنني أن أجعله يعمل شيئا ما، وبإعلامي له يمكنني أن أقنعه، أنوره، أنقعه، أوحى له (ويقدم سيرل أسوة بأوستين عددا من الشروط يتجاوز فيها قصور الشروط التي قدمها أوستين. يضع "سيرل" تسعة شروط إضافية تحكم الاتصال الإنجازي نعرض لها بإيجاز :

1. شروط المدخل والمخرج الاعتيادية : ويفترض سيرل أن يكون الاتصال صريحا وجادا، وأن يتم بين مرسل ومتلق يشترط لهما توفر القدرة على الاتصال فيما بينهما عضويا ونفسيا.

1-1 شرط المحتوى القضوي

1-2 ينبغي أن يعبر فعل التلطف عن قضي .

1-3 أن تسند القضية إلى المتكلم فعلا مستقبليا .

2. شروط تمهيدية

1-2 أن يفترض المتكلم أن المستمع يريد أن يقوم بالفعل، وأن يصدق افتراض المتكلم، بحيث يكون المستمع راغبا فعلا في ذلك.

- 2-2 أن يكون أمر إنجاز الفعل من قبل المتكلم غير واضح لدى المتكلم والمستمع.
3. شرط الصدق أن ينوي المتكلم إنجاز الفعل الذي تسنده له القضية المصرح بها.
4. الشرط الأساسي أن يقصد المتكلم أن يلزمه تلفظه القيام بالفعل مناط التلفظ.
5. شرط المعنى غير الطبيعي أن يدرك المستمع أن المتكلم ملزم بالقيام بالفعل من خلال تلفظه. وأن يكون هذا الإدراك من قبل المستمع قائما على معرفة المستمع بمعنى تلفظ المتكلم .
6. الشرط التعريفي أن لا يكون تلفظ المتكلم صحيحا ولا وعده صادقا، ما لم تستوف الشروط من هذا. وقد حاول سيرل أن يحصر أفعال الكلام في اللغة عبر تصنيفه لها في خمسة أنماط رئيسة :
- 1-6-1 أفعال تمثيلية وهي الأفعال التي تلزم المتكلم بصدق القضية المعبر عنها ومن أمثلتها أفعال التقرير والإستنتاج
- 1-6-2 أفعال توجيهية وهي الأفعال التي تمثل محاولات المتكلم لتوجيه المستمع للقيام بعمل ما، ومن أمثلتها أفعال الطلب والسؤال .
- 1-6-3 أفعال التزامية وهي الأفعال التي تلزم المتكلم بالنهوض بسلسلة من الأفعال المستقبلية، ومن أمثلتها أفعال العرض والوعد والوعيد .
- 1-6-4 أفعال تعبيرية وهي الأفعال التي تعبر عن حالة نفسية المتكلم، ومن أمثلتها الشكر والاعتذار والترحيب والتهنئة .
- 1-6-5 أفعال إعلانية وهي الأفعال التي تحدث تغيرات فورية في نمط الأحداث العرفية التي غالبا ما تعتمد على طقوس اجتماعية فولغوية تنسم بالإطالة، ومن أمثلتها أفعال إعلان الحرب، وطقوس التنصير والزواج وأفعال الطرد والإقالة من العمل .
- أكد سيرل وجود أفعال مباشرة، وأفعال غير مباشرة في خطوة منه لتفادي طبيعة التعابير اللغوية المتداخلة والمتبادلة، مشيرا إلى أننا في السؤال التالي Can you open the door? هل يمكنك أن تفتح الباب؟ ننجز طلبا غير مباشر، والواقع أن العلاقة بين الطلب والسؤال قريبة بعض الشيء، لكن ترى كيف يمكن لنا أن نفسر فهم المضيف لقول ضيفه الإخباري التقريري: الجو حار جدا اليوم، بأن يسارع بفتح نافذة الغرفة. نحن هنا إزاء طلب غير مباشر أيضا. وماذا ستفعل نظرية أفعال الكلام إزاء كثير من الأعراف اللغوية المختلفة في اللغات؟ حيث يقول "سيرل": "هناك حالات يتمكن فيها المتكلم من قول جملة ويريد بها معناها الظاهر، ويدل ذلك على مقولة ذات محتوى إسنادي مغاير، مثلا: يمكن للمتكلم أن يتلفظ بجملة : هل بإمكانك أن تتاولني الملح ؟ ولا يدل على استفهام، بل طلب بتقديم الملح"⁽¹⁾، فالأفعال المباشرة هي الأقوال الحقيقية التي يطابق معناها المعنى الذي يقصده المتكلم ويفهمه السامع⁽³²⁾.

قائمة المصادر والمراجع:

- 1- فرانسواز أرمينكو، المقاربة التداولية، ترجمة سعيد علوش، مركز الإنتماء القومي، بيروت، ط 1، 1986، ص 97.
- 2- خولة طالب الإبراهيمي، مبادئ في اللسانيات، دار القصة للنشر، الجزائر، 2000، ص 22.

- 3- محمود أحمد نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، دار المعرفة الجامعية، الأزاريطة، مصر، دط، 2002، ص40.
- 4- المرجع نفسه، ص59.
- 5- حسن محمد الكحلاني، فلسفة التقدم، دراسة في اتجاهات التقدم والقوى الفاعلة في التاريخ، مكتبة مذبولي، دط، 2003، ص119.
- 6- ميجان الرويلي، سعد البازعي، دليل الناقد الأدبي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط2، 2002، ص160.
- 7- نعمان بوقرة، محاضرات في المدارس اللسانية، جامعة باجي مختار، عنابة، 2006، ص195.
- 8- طالب طبطباني، نظرية الأفعال الكلامية، مجلة الفكر المعاصر، ص65.
- 9- محمود أحمد نحلة، مرجع سابق، ص66.
- 10- المرجع نفسه، ص68.
- 11- الجيلالي دلاش، مدخل إلى اللسانيات التداولية، ترجمة محمد يحياتن، ديوان الطبوعات الجامعية، الجزائر، 1992، ص24.
- 12- المرجع نفسه، ص22.
- 13- j.L.Austin, quan dire cest faire p153, 154.David zemmour, initiation a la linguistiue, p128, 129.
- 14- المرجع نفسه، ص24.
- 15- فيليب بلانشيه، التداولية من أوستين إلى غوفمان، ترجمة صابر الحباشة، دار الحوار للنشر، سوريا، ط2007، ص62.
- 16- محمد مفتاح، تحليل الخطاب الشعري استراتيجية التناص، المركز العربي، الدار البيضاء، بيروت، ط3، 1992، ص30.
- 17- محمد أديوان، نظرية المقاصد بين حازم القرطاجني ونظرية الأفعال اللغوية، مجلة الوصل، معهد اللغة العربية وآدابها، جامعة تلمسان، ع1، 27 ديسمبر، 2003، ص39.
- 18- فرانسواز أرمينكو، المقارنة التداولية، ص80.
- 19- المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، أصول اتجاهات المدارس اللسانية الحديثة، مج 32، ع 1، 2003، ص164.
- 20- محمود أحمد نحلة، مرجع سابق، ص68.
- 21- لمرجع نفسه، ص69.
- 22- المرجع نفسه، ص71.
- 23- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.
- 24- طالب طبطباني، نظرية الأفعال اللغوية، ص71.
- 25- الجيلالي دلاش، المرجع السابق، ص25.
- 26- طالب طبطباني، مرجع سابق، ص67.
- 27- محمود أحمد نحلة، مرجع سابق، ص72.
- 28- المرجع نفسه، ص74.
- 29- المرجع نفسه، ص78.
- 30- آن رويول جاك موشلار، التداولية اليوم علم جديد في التواصل، ترجمة الدكتور سيف الدين دغنوس والدكتور محمد الشيباني، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، 2003، ص31، 32.
- 31- المرجع نفسه، ص83.
- 32- عبد الله ابن المعتز، البديع، نشر وتعليق اغناطيوس براتشوفسكي، دار المسيرة، بيروت، ط3، 1982، ص62.